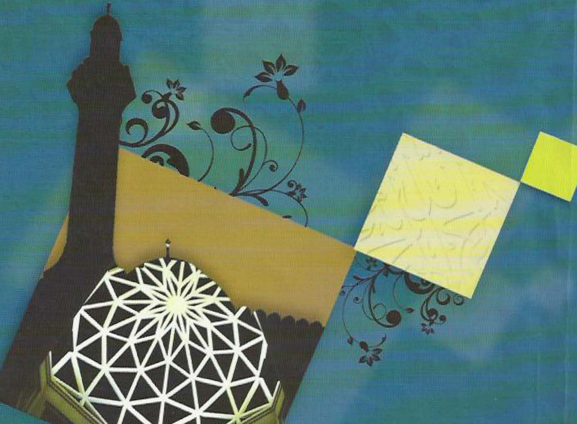
السيد محمد حسن ترحيني العاملي

الإسلام والعقل



دار الكاتب العربي

الإسلام والعقل

تأليف

السيد محمد حسن ترحيني العاملي

دار الكاتب العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين،

وصلى الله على محمد وآله الطيبين

الفصل الأول

الخطاب القرآني للعقل

١ القرآن معجزة عقلية

٢ العقل ودوره

٣ خطاب القرآن للعقل

٤ المعجز القرآني على وفق السنن

٥ فهم السنن الكونية هو عالم المعاجز

٦ لوازم الخطاب القرآني للعقل.

١

القرآن معجزة عقلية

عندما بعث الله أنبياءه رُسلاً حاملين هداية الله من عقيدة وشريعة أيّدهم بمعجزات لم تعهدها العقول، ليثبتوا للناس أنهم مبعوثون من قِبل الله تعالى.

المعجزة أمرٌ فوق مقدور البشر، ولذا سُمّيت بالمعجز، لأنه يعجز البشر عن الإتيان بمثلها، وسُمّيت بالأمر الخارق للعادة، لأنها مخالفةٌ للسنن الخاصة بالمادة، ومخالفةٌ للقوانين الطبيعية.

المعاجز التي تكلم عنها القرآن على أنواع:

منها: إخبارات غيبيّة، كإنباء عيسى عليه السلام قومَه بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم.

ومنها: ما هو مخالفٌ للسّنن والقوانين الطبيعية، كالنار التي أراد الكافرون إحراق إبراهيم عليه السلام بها فكانت عليه برداً وسلاماً.

ومنها: ما هو ناتج من غير الأسباب الطبيعية والقوانين الكونية، كانفجار الماء من الحَجَر حينما ضربه موسى عليه السلام بعصاه عندما استسقاه قومه، وتظليل الغمام على بني إسرائيل في التيه،

وانشقاق البحر وانحسارِ الماء لموسى ﷺ ولقومه حتى مَشوا فيه هرباً من فرعون، وناقةِ صالح ﷺ وفصيلها.

وغالب المعاجز أتت ابتداءً موافقةً لما هو الشائع بين الناس، ليكون ذلك أبلغ في تأييد الرسول وأقوى في الإلزام، كمعجزة موسى ﷺ بانقلاب العصا إلى ثعبان عظيم وقد بلع عصيّ السحرة وحبالهم، لِما برع فيه المصريون وقتذاك من السحر، ومعجزة عيسى ﷺ بإحياء الموتى، لِما كان عليه اليهود من إنكار الروح ولشيوع الطب بينهم.

وقد تأتي المعاجزُ بناءً على اقتراحِ القوم، كناقةِ صالح ﷺ وفصيلها، والمائدةِ السماوية التي طلبها الحواريون من عيسى ﷺ.

فالمعاجز بجميع أقسامها قبل معجزة النبي الأعظم ﷺ قد كانت على هذا النحو، لأن العقول البشرية لم تكن من النضج حتى تستطيع أن تقتنعَ بالحجةِ وتؤمن بالبرهان، فالمناسب لها معاجزُ تُبهر العقل وتأخذ عليه مسالكه، فيُذعن ويقتنع بصدق نبوة أصحابها، فكانت المعجزة تقمعُ العقل ولا تُقنعه. وعندما بلغت العقولُ بدايةَ النضج أتت المعجزة العقلية الخالدة على يد رسول الله محمد ﷺ، وهي القرآن. فالقرآن لم يقمَعْ العقل بل خاطَبَه ليقْنعه، حتى يؤمِّنَ اختياراً، ويصلَ صاحبه بفهم شيء من معجزته، وعندما أتى القرآن الذي يُقنع العقل فكان معجزةً عقليةً وكان البقاء من طبيعته.

ولذا عندما طلبوا من النبي الأعظم ﷺ شيئاً من سنخ المعاجز السابقة كان ردّ الله تعالى عليهم أن ينظروا في القرآن وما فيه من هُدى، فهو دلائل عقليةٌ على أنه وحيٌ إلهي، قال تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ـ أي: معجزات ـ ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ـ أي: القرآن ـ ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

(١) سورة العَنكبوت، الآيتان: ٥٠ ـ ٥١.

٢

العقل ودوره

العقل بحسب عمله منقسم إلى أربعة أقسام.

العقل المدرك، والعقل الحكيم، والعقل الرشيد، والعقل الرادع والباعث.

العقل المُدرك هو الذي يُدرك الأمور وأسبابها وعواقبها، سواء كانت هذه الأمور مما لها علاقة بالأوامر والنواهي أم بغيرها.

ويدرك أيضاً الحقائقَ وجوديةً أو ماهويةً، دينيةً أو دنيويةً.

والعقل الحكيم هو الذي يتأمل فيما يُدركه ويُقلّبه على وجوهه فيستخرج منه البواطن والأسرار، ويبني عليها أحكاماً تبعاً لسيريه السلوكي والوجودي، ومنه تنتج الحكمة.

والعقل الرشيد هو الذي يدرك الوظائف الإنسانية تجاه جميع الموجودات.

ووظيفة الرشد فوق وظيفتي الإدراك والحكمة، لأنها استيفاء لهاتين الوظيفتين مع مزيدٍ من النضج، للتمييز بين الهداية والغواية في السير الإنساني العام فرداً ومجتمعاً، دنيا وديناً.

وإذا أعمل الإنسان عقله، سواء كان مدركاً أم حكيماً أم رشيداً، واستخلص زُبدة الرأي بحيث يصعب على الإختيار مخالفتها، لوضوحها إلى حدٍ تستولي على النفس إلى درجة اليقين، فيعقل الإنسانُ نفسهُ عن المحظور والمنكر، أو يعقلها ببعثها نحو الحُسن الملزم.

وعليه فلا يكون الإنسان رادعاً وباعثاً لنفسه إلا إذا كان صاحب عقل مدرك أو حكيم أو رشيد مع إعمال الإرادة بحسن الإختيار.

ومن هنا كان اشتقاق العقل من مادة (عقل) التي يؤخذ منها العقال، وتكاد شهرة العقل بهذه التسمية أن تتوارد في اللغات الإنسانية الكبرى التي يتكلم بها الغالب من بني البشر، وهو الذي يعصم النفس.

٣

خطاب القرآن للعقل

في كتب الأديان السابقة والواصلة إلينا إشارات صريحة أو خفية إلى العقل أو إلى التمييز، وهي إشارات تأتي عَرَضاً غير مقصودة.

وفي القرآن الكريم آياتٌ تقصد العقلَ، وهي صريحة اللفظ، جازمة الدلالة على ذكره، فقد ذُكر في مقام التعظيم، وفي وجوب الرجوع إليه، وفي وجوب العمل به، فنوّه القرآن بالعقل وجعل التعويل عليه في أمر العقيدة، وفي أمر التكليف فهماً وتحمّلاً.

وفي القرآن الكريم آياتٌ صريحة على لوم من يُهمل عقله، ويقبل بالحجر عليه.

وفي القرآن الكريم آياتٌ تشمل وظائف العقل على اختلاف أعمالها وخصائصها من الإدراك والحكمة والرشد والردع والبعث، وهذه مزايا واضحة من مزايا القرآن الكثيرة.

فمِن خطاب القرآن للعقل المدرك قولُه تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ

ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١).

ومن خطاب القرآن للعقل الحكيم قوله تعالى:

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٢).

ومن خطاب القرآن للعقل الرشيد قوله تعالى:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾(٥)، وقوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾(٦)، وبعد غرق قومه قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾(٧)، وقال تعالى حكايةً عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾(٨).

ومن خطاب القرآن للعقل الرشيد في مجال التصرّف المالي قوله

---

(١) سورة البَقَرَة، الآية: ١٦٤.
(٢) سورة البَقَرَة، الآية: ٢٦٩.
(٣) سورة البَقَرَة، الآية: ٢٥٦.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٥١.
(٥) سورة الجنّ، الآية: ١٤.
(٦) سورة غافر، الآية: ٢٩.
(٧) سورة هُود، الآية: ٩٧.
(٨) سورة غافر، الآية: ٣٨.

تعالى: ﴿...فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾[1]، وفي مجال العلاقة الغريزية لبناء الأسرة والمجتمع قوله تعالى حكاية عن لوط ﷺ لقومه: ﴿فَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾[2].

ومن خطاب القرآن للعقل الرادع والباعث الذي تنتج منه عصمة النفس بإعمال حُسن الإختيار قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[4]، وقوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[5].

هذا وحثّ القرآنُ على التدرّج إلى مرتبةٍ أعلى من الرتبة العقلية التي هو فيها حتى يصل إلى الرُّشد في جميع المجالات، ولذا طلب موسى ﷺ الرُّشدَ من عبدٍ من عباد الله الصالحين كما في قصتهما في سورة الكهف، قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[6].

وعليه فالعقل المدرك قد يُؤْتى من نقصٍ في فهم الأمور والحقائق، والعقلُ الحكيم قد يُؤْتى من نقصٍ في الإدراك أو في

(١) سورة النِّسَاء، الآية: ٦.

(٢) سورة هُود، الآية: ٧٨.

(٣) سورة المُلك، الآية: ١٠.

(٤) سورة البَقَرَة، الآية: ٤٤.

(٥) سورة الزُّمَر، الآية: ١٨.

(٦) سورة الكهف، الآية: ٦٦.

استخلاص النتائج والعواقب، ولكن العقل الرشيد ينجو به الرشاد، لأنه لا يكون رشيداً إلا إذا وافق التكوين من الفطرة ومقتضياتها، ووافق سنن الصواب والكمال.

والذي يُوصل العقل إلى تمام رشده في كل المجالات هو القرآن، قال تعالى حكايةً عن نفرٍ من الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾(١).

نعم العقل الراده والباعث الذي يعصم النفس لا يؤتى من قبل العقل، وإنما يؤتى من قبل إعمال الإرادة بالإختيار السيء، وسوء الإختيار إما بسبب غلبة الغرائز بخروجها إلى حدّي الإفراط والتفريط، أو بسبب غلبة الأماني الوهمية التي تحركها المطامع غير المشروعة.

---

(١) سورة الجنّ، الآيتان: ١ ـ ٢.

٤

المعجز القرآني على وفق السنن

المعجز قبل الإسلام كان على غير العادة والسنن الطبيعية والكونية فأتى الإسلام بالمعجز على وفق العادة والسنن.

فالقرآن هو المعجز الإسلامي، وهو مؤلف من سورٍ، والسور من آيات، والآيات من كلمات، والكلمات من حروف، والحروف مقدورة للبشر، بل من الحروف نشأت اللغات التي يتكلم بها البشر على مرّ العصور.

ولذا كانت الحروف المقطّعة في أوائل السور إيغالاً في التحدي، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٢) سورة هود، الآيتان: ١٣ ـ ١٤.

وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

وفي الخبر السجادي: (كذّبت قريش واليهود بالقرآن، وقالوا: هذا سحرٌ مبين تقوّله، فقال الله: ألم ذلك الكتاب، أي: يا محمد، هذا الكتاب الذي أنزلته إليك هو الحروف المقطّعة، التي منها ألف ولام وميم، وهو بلغتكم وحروف هجائكم، فأتوا بمثله إن كنتم صادقين)[2]

---

(١) سورة البَقَرَة، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) البحار ج٨٩ ص٣٧٧، حديث: ١٠.

٥

فهم السنن الكونية
هو عالم المعاجز

القرآن عندما خاطب العقل فيكون داعياً إلى التفكير، والآيات التي دعت إلى التفكير كثيرةٌ، منها قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾(٣).

---

(١) سورة آل عِمرَان، الآية: ١٩٠.

(٢) سورة البَقَرَة، الآية: ١٦٤.

(٣) سورة الأعرَاف، الآية: ١٨٥.

وعندما دعا القرآن إلى التفكير في سنن التكوين فقد دعا إلى فهمها، وفهم السنن هو المعجز الذي دعا إليه القرآن.

وفهم عالم التكوين يقود إلى الهُدى الإيماني، لأن عالم التكوين على كثرة أجزائه هو كون واحد، فريد في نظمه، متكامل في أجزائه وجزئياته، والعلم به موصل إلى الإيمان بإلهٍ واحدٍ خالقٍ عالمٍ قادرٍ غنيٍّ حكيم، خلق فسوّى ودبّر فأعطى، وسيّر الجميع بانتظام واتساق.

وعليه فمن مرّت به آية من آيات الأرض والسماء وما خلق الله ولم يعرف منها ديناً فلن تزيده إلا ضلالاً على ضلال.

والقرآن عندما خاطب العقل وحثّه على التفكير الموصل إلى العلم بالسنن الكونية والطبيعية فقد جعل المعاجز حيثما ينظر العقل، ويكون الدين الإسلامي هو دين المعجزات التي يعمل العقل لإدراكها، ويكون دين المعجزات في كل شيء، بعدما وضع المعجز في موضعه من التفكير ومن الاعتقاد.

وحَسْبُ الدينُ أن يكون صالحاً بأنه نَهَضَ بالعقل وسَمَا بالنفس، وجعل المعجز تابعاً لأصل الإيمان بعدما كان أصل الإيمان تابعاً للمعجز.

وكما سَخِرِ البشر من المعجز الخارق للعادة والسنن، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾[1].

---

(١) سورة الزّخرُف، الآيات: ٤٦ ـ ٤٨.

كذلك سَخِر البشر من المعجز الموافق للسنن والمؤدي إلى الهُدى الإيماني، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[1].

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٤.

٦

لوازم الخطاب القرآني للعقل

اللوازم للخطاب القرآني متعددة وهي:

الأول: التفكير أمرٌ لا بدّ منه، لأنه بعدما خلق الله الإنسان فمن غير المقبول في حكمة الله أن يسلبه القدرة على التفكير بعدما أعطاه العقل، فالتفكير أمرٌ وجودي تكويني لا بدّ منه.

والخطاب القرآني للعقل ـ كما تقدم ـ يستدعي أن يكون القرآن واعياً للتفكير، بالإضافة إلى الآيات الكثيرة التي دعت إليه، وقد تقدم بعضها.

وعليه فالتفكير فريضة وجودية وفريضة قرآنية إسلامية، وهذا الحثّ على التفكير لأن الحكمة الإلهية اقتضت ولادة الإنسان بلا إدراك ولا تمييز ولا علم ولا عقل، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

---

(١) سورة النّحل، الآية: ٧٨.

وإلا لو كان له إدراك وتمييز وعلم وعقل عند الولادة لترتب على ذلك مفاسد.

منها: عدم قدرته على تحمل معرفة العالم الدنيوي دفعةً واحدة، لأنه عالم غريب عنه، كثير الأسرار، وهذا ما يوجب إصابته بالدهشة والحيرة.

ومنها: مذلته ومهانته الناشئة من إدراكه لضعف بدنه وعدم قدرته، فلا يستطيع الحركة ولا القيام ولا المشي ولا الاستقلال في تحصيل منافعه ودفع مضاره، ويرى نفسه ملفوفاً بقماش، مُمدّداً على سرير، مربوطاً بقماط، ينظف ويُلبس ويُطعم.

ومنها: أنه سيرى عند خروجه من الرحم إلى عالم الدنيا من أمه ما يقبح أن يراه.

فاقتضت الحكمة الإلهية أن يُولد غافلاً غير ملتفت، جاهلاً غير عالم، لحثّ والديه على العناية به والالتذاذ بتربيته، ولإقبال المولود على تحمل معاني الحياة وكشف أسرار الكون ومعالم السلوك بالتدريج، التي هي السُّنة التي لا بدّ منها.

الثاني: ما يقابل وظائف العقل، فالقرآن الذي خاطب العقل، فهو قد خاطب العقل الذي يدرك الحقائق (وهو المدرك) ويميّز بين الأمور ويوازن بين الأضداد ويتدبّر في العواقب (وهو الحكيم) ويتبصّر الطريق المستقيم بإدراك الوظائف الإنسانية تجاه الموجودات (وهو الرشيد)، ويلازم هذه الوظائف العقلية عصمة النفس بردعها عن القبيح وبعثها ودفعها والأخذ بها إلى الحُسن (وهو الرادع الباعث).

ولم يخاطب القرآن العقل الذي قصاراه من الإدراك أنه يقابل الجنون، فالجنون يُسقط التكليف عقلاً، ويسقطه في جميع الشرائع والأعراف والعادات.

ولكن القرآن خاطب العقل بوظائفه الثلاثة المتقدمة، الذي يقابلها الجمود في قبال المدرك، والعنت في قبال الحكيم، والضلال في قبال الرشيد، وهذه أمور غير مسقطة للتكليف.

وليس لأحدٍ أن يعتذر بها كما يعتذر المجنون بجنونه، فإن الجمود وأخويه لا يدفعون الملامة، ولا يمنعون المؤاخذة بالتقصير.

الثالث: الحث على طلب مطلق العلم، فلم يخاطب القرآنُ العقل ويحثّه على التفكير إلا لأن عنده القدرة على سبر آيات الكون داخل النفس وخارجها، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[١].

ومن هذا السَبْر العقلي للكون يحصل العلم، فلذا حثّ القرآن على طلب العلم، وعلى الاستفادة منه كلما نَجَم جديد، بل الإسلام جعل العلم عبادةً، إذ خيرُ العبادة أن يهتدي الإنسان إلى سرّ الله في خلقه، ويهتدي إلى حقائق الوجود، ففي الخبر الرضوي: (ليس العبادة كثرة الصلاة والصيام، إنما العبادة التفكر في أمر الله عز وجل)[٢].

ومن الخطأ القول: إن القرآن حثّ على طلب العلم الديني فقط، باعتبار آية النفر، وهي قوله تعالى: ﴿۞وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ

(١) سورة فُصّلَت، الآية: ٥٣.

(٢) البحار ج٦٨ ص٣٢٢، حديث: ٤.

لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1]، لأنه حث على طلب كل العلوم باعتبار آيات التفكر والتدبر والتعقل والنظر، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾[2].

وقد أدرك المسلمون من القرآن هذا الحثّ على كل العلوم، فلذا أقبلوا على العلوم والثقافات اليونانية والفارسية والهندية في أوائل حضارتهم، كما أقبلوا على العلوم والثقافات الغربية عندما أصبحوا على هامش الحضارة المادية السائدة اليوم، ومع حثّه على العلم لا بدّ أن يكون خالياً عن كل ما يناقض وسائل إثبات المعلوم، كما هو خالٍ عن التعارض مع مسائل العلم التي تَثْبُتُ ثبوت اليقين، لأنه بعد اليقين لا تتقوّض هذه المسائل بعد رسوخ، ولا تتزعزع بعد ثبوت.

ولكن ليس من شأن القرآن ولا الإسلام أن يُفصّل في مسائل العلم التي تتجدد في كل زمان على سُنّة التقدّم، من ناقصٍ يتمّ، وغامض يتضّح، وموزّع يجتمع، وخطأٍ يقترب من الصواب، وتخمينٍ يترقّي إلى اليقين.

فالحذر كل الحذر من الإفراط في محاولات التوفيق بين القرآن وبين ما يأتي باسم العلم في كل جليل ودقيق مما لم يثبت ثبوت اليقين، بل الحذر من الدعوى والزعم بأن كل ما تستنبطه العقول من العلوم فهو مطابق للكتاب الكريم في ألفاظه ومعانيه، لأن القرآن ليس

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

كتاب علوم وإن كان فيه إشارات إليها، بل هو كتاب هداية للإيمان، وهداية للتزيّ بزي العبودية لله جلّ وعلا، وهداية لتحديد وتقويم السير السلوكي الإنساني.

الرابع: من الخطاب القرآني للعقل فيكون القرآن قد أقرّ بجملة من الأمور.

أ ـ الإقرار بكون العقل مصدراً من مصادر المعرفة.

ب ـ تحديد وظائفه المدركة والحكمية والرشدية، وأما العقل الرادع والباعث فليس له مدخلية في تحصيل المعرفة، ولكن هو عماد التربية، لأن له تمام الدخل في تحسين الاختيار والإرادة، والتربية توأم العلم، ولذا قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1]، وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2].

ج ـ الحثّ على النظر والتدبر والتفكّر، والآيات كثيرة، وقد تقدم بعضها.

منها: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾[3].

---

(١) سورة الجُمُعَة، الآية: ٢.

(٢) سورة البَقَرَة، الآية: ١٢٩.

(٣) سورة الأعرَاف، الآية: ١٨٥.

والنظر ليس للإعتبار والعبرة فقط، بل للإستكشاف والإدراك، ولذا وردت آيات النظر إلى الإنسان، وإلى ما حوله، بل إلى تمام الكون، قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ۝٣٢﴾[2]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾[3].

فالآيات القرآنية المتعلقة بالنظر هي الموجّه والمرشد الذي يُبرز الآفاق التي لاحدود لها في تحصيل المعرفة، وبهذا إقرار باستحالة انسداد آفاق المعرفة بلا فرق بين الآيات الكونية والآفاقية وبين الآيات الأنفسية وبين الآيات القرآنية.

د ـ الاعتماد على البرهان، وهو الدليل القاطع، وهو الذي جعله العقل دليلاً على تحصيل المعارف.

قال تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[4] وقال تعالى: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ

(١) سورة الطّارق، الآيات: ٥ ـ ٧.
(٢) سورة عَبَسَ، الآيات: ٢٤ ـ ٣٢.
(٣) سورة الغَاشِيَة، الآيات: ١٧ ـ ٢٠.
(٤) سورة النَّمل، الآية: ٦٤.
(٥) سورة الأنعَام، الآية: ١٤٣.

﴿عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنِۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾[2]، والسلطان هو الحجة، لأنه يوجب تسلّط صاحبه واقتداره على الجاهل.

هـ ـ عدم الاعتماد على الظّن، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[3]، والعقل حاكم بعدم حجيته لعدم تمام انكشافه عن الواقع، لمصاحبته لاحتمال الخلاف، وإذا لم تصح بدلية الظن عن العلم فلا تصح بدلية الشك والوهم، لأنهما أضعف منه في الكاشفية عن الواقع.

الخامس: عندما خاطب القرآن العقل بكل وظائفه كان الخطاب القرآني متوجهاً إلى عقل الإنسان، ليصل إلى الفهم القويم والتفكير السليم ليتولى الإنسان هداية نفسه بعقله وفهمه، وهكذا كان خطاب الأنبياء ﷺ لأقوالهم، ففي الخبر الصادقي: (ما كلّم رسول الله ﷺ العباد بكنه عقله قط، وقال رسول الله ﷺ: إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدْر عقولهم)[4].

وعندما طُلب من العقل أن يَبْلُغَ وسعه في الإدراك والحكمة والرشاد ليهدي صاحبه فلا محالة يكون حساب العمل على الإنسان نفسه، قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ

(١) سورة يونس، الآية: ٦٨.
(٢) سورة الصّافات، الآيتان: ١٥٦ ـ ١٥٧.
(٣) سورة يُونس، الآية: ٣٦.
(٤) أصول الكافي ج١ ص٢٣ حديث: ١٥.

يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[2]، أي: محبوس بعمله ومؤاخذ عليه.

وإذا كان العقل هو إعمال الفكر للوصول إلى الحق، وتمييزه عن الباطل، ولمعرفة الصواب من الخطأ، والصالح من الفاسد، ولوضع الأمور في مواضعها، ولتقرير المواقف السليمة مع الآخرين فالكثير من الناس مفكرون ولكن العقلاء منهم قليلٌ، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3]، وعلى هذا وردت الأخبار الكثيرة، ففي الخبر الصادقي: (من كان عاقلاً كان له دين، ومن كان له دين دخل الجنة)[4].

وفي خبره الآخر: (قلت له: ما العقل؟ قال: ما عُبد به الرحمان، واكتُسب به الجنان)[5].

وخبره الثالث عن رسول الله ﷺ: (إذا رأيتم الرجل كثير الصلاة والصيام فلا تباهوا به حتى تنظروا كيف عقله)[6].

وخبره الرابع عن رسول الله ﷺ: (إذا بلغكم عن رجلٍ حُسن حالٍ فانظروا في حُسن عقله، فإنما يُجازى بعقله)[7].

---

(١) سورة النّجم، الآيتان: ٣٩ ـ ٤٠.
(٢) سورة الطّور، الآية: ٢١.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.
(٤) أصول الكافي ج١ ص١١، حديث ٦ من كتاب العقل والجهل.
(٥) المصدر نفسه حديث: ٣.
(٦) المصدر نفسه ص٢٦ حديث ٢٨.
(٧) المصدر نفسه ص١٢ حديث ٩.

وفي النبوي: (قُسّم العقل على ثلاثة أجزاء، فمن كانت فيه كمُل عقله، ومن لم تكن فيه فلا عقل له: حُسن المعرفة بالله، وحُسن الطاعة له، وحُسن الصبر على أمره)[1].

وفي الخبر الكاظمي: (يا هشام، إن ضوء الجسد في عينيه، فإذا كان البصرُ مضيئاً استضاء الجسدُ كلّه، وإن ضوء الروح العقل، فإذا كان العبد عاقلاً كان عالماً بربه، وإذا كان عالماً بربه أبصر دينه، وإن كان جاهلاً بربه لم يقم له دين، وكما لا يقوم الجسد إلا بالنفس الحيّة فكذلك لا يقوم الدين إلا بالنية الصادقة، ولا تثبت النية الصادقة إلا بالعقل)[2].

وفي الخبر الباقري: (إنما يُداق الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدْر على ما آتاهم من العقول في الدنيا)[3]، والمداقة: المناقشة والتدقيق في الحساب.

---

(١) البحار ج١ ص١٠٦، حديث: ١.

(٢) البحار ج١ ص١٥٣، حديث: ٣٠.

(٣) أصول الكافي ج١ ص١١ حديث: ٧.

الفصل الثاني

تكوين العقلية الفكرية

١ مصادر العقلية الفكرية

٢ دور الحواس في تحصيل المعرفة

٣ دور القلب في تحصيل المعرفة.

٤ دور الوحي في تحصيل المعرفة.

٥ دور العقل في تحصيل المعرفة من عالم الشهادة.

٦ دور العقل في إدراك عالم الغيب.

٧ أهمية العقل والوحي.

١

مصادر العقلية الفكرية

العقلية الفكرية تستمد معارفها من أربعة مصادر:

الأول: الحواس.

الثاني: العقل.

الثالث: القلب الذي هو نافذة النفس على البدن، وهو مصدر للمعرفة الفطرية، والمعرفة الإلهامية، والمعرفة المتجسدة في المنامات.

الرابع: الوحي السماوي.

أما الحواس فقال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١].

وَذَكَر السمع والبصر لأنهما أكثر الحواس استعمالاً للإدراك.

وأما العقل فالآيات الكثيرة دالة على التعقل والتدبر والتفكر، وقد تقدم بعضها.

---

(١) سورة النّحل، الآية: ٧٨.

وأما القلب فمعارفه من الفطرة والإلهام والمنام، أما الفطرة فقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

وأما الإلهام فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾(٥).

وأما المنام ففي القرآن رؤيا يوسف ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾(٦)، ورؤيا فتية يوسف، يوسف ٣٦، ورؤيا ملك مصر، يوسف ٤٣، ورؤيا النبي الأعظم ﷺ نزوَ بني أمية على منبره، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾(٧)، ورؤيا النبي الأعظم ﷺ دخول المسجد الحرام، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ

(١) سورة الرُّوم، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.
(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٨.
(٤) سورة الزُّمَر، الآية: ٢٢.
(٥) سورة الحِجر، الآية: ٧٥.
(٦) سورة يُوسُف، الآية: ٤.
(٧) سورة الإسرَاء، الآية: ٦٠.

رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾[1].

وأما الوحي السماوي فمتمثّل بالقرآن وبالنبي الأعظم ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[4].

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٣) سورة الشورىٰ، الآية: ٥٢.

(٤) سورة الحشر، الآية: ٧.

٢

دور الحواس في تحصيل المعرفة

الحواس الظاهرة للإنسان خمسة: البصر، والسمع، والشمّ، والذوق، واللمس.

فالبصر ـ ومجراه في العينين ـ لإدراك المبصرات، وهي أنواع منها: النور والظلمة واللون من السواد والبياض والحمرة والصفرة وغيرها، ومنها: المقادير ذات الأبعاد، والأشكال والصور، والحركات والسكون.

والسمع ـ ومجراه في الأذنين ـ لإدراك المسموعات، وهي الأصوات، وهي حيوانية وغيرها، وغير الحيوانية كصوت الرعد وحفيف ورق الشجر وخرير الماء.

والحيوانية نوعان، منطقية وغير منطقية، فغير المنطقية كصهيل الخيل ونهيق الحمار وخوار الثور.

والمنطقية دالٌ وغير دال، فغير الدال كالألحان والنغمات والضحك والبكاء والصراخ والأنين، والدال هو الملفوظ بالحروف الهجائية.

والشمّ ـ ومجراه في المنخرين ـ لإدراك الروائح، وهي نوعان: لذيذة وكريهة، فاللذيذ يُسمى بالطيب، والكريه يُسمى بالنتن.

والذوق ـ ومجراه في اللسان ـ لإدراك المطعوم، وهو على أنواع: الحلاوة الملائمة لطبع الإنسان، والمرارة المنافية له، وما بينهما من الحموضة والملوحة والحرافة والعذوبة.

واللمس ـ ومجراه في كل أنحاء الجسم، والأداة الفاعلة له هي اليدان ـ لإدراك الملموسات، وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة والصلابة والرخاوة.

والحواس بما هي أدوات للمعرفة لا تصلح أن تكون مصدراً للمعرفة ما لم تعتمد على العقل.

٣

دور القلب في تحصيل المعرفة

المعرفة من المنام قليلة بل نادرة، وهي غالباً ما تتعلق بالفرد في سلوكه الحياتي المعاشي أو في سلوكه الإنساني أو العبودي، والمنام الصادق مندرج تحت التوفيق الإلهي، ولقلّته أو ندرته لم يذكره الكثير من مصادر المعرفة.

والإلهام منحصر في السير السلوكي الإنساني فقط، ولا يتعدّى إلى كشف الحقائق الدنيوية والدينية، وما يُدّعى أكثر من ذلك فهو على مدّعيه، لأن الأدلة الدالة على مصدرية الإلهام لا تدل على أكثر من ذلك، قال تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾(١)، بل الدعوى بأكثر من ذلك تعطيل لدور العقل أو قصور في فهم الوحي.

والفطرة لها تطلّعات وميول، فالتطلّعات متعلقة بالقيم والمبادئ العامة، والميول متعلّقة بالحاجات الجسدية وتسمى بالغرائز. فالقيم والحاجات هي آفاق النفس، فتريد أن تتلبّس بالأولى لتكتمل، وأن تشبع من الثانية أو تأخذ حاجتها منها، وفي قسمي القيم والحاجات

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٨.

تستقر النفس عند إشباع حاجتها الروحية والجسدية. ويعدُ المائز الحقيقي بين التطلعات والميول، فالميول تدفع النفس للإشباع بدون توسّط العقل، كغريزة حب الأكل المترتّب عليه حفظ النفس، وغريزة حب النكاح المترتّب عليه بقاء النوع الإنساني. والتطلّعات لا تتلبّس النفس بها إلا بتوسّط العقل، وهذه التطلّعات ثلاثة: حب الكمال وحب الجمال وحب الخير، والخير أعم من العلم والقيم والمبادئ.

وعليه لا بدّ من إعمال العقل في تقرير حقائق الفطرة، ومعرفة أنواعها ووظائفها.

نعم الفطرة دليل معصوم من جهة أن تعلّقها بالشيء دليل على وجوده، لأن الخالق جلّ وعلا عندما خلق النفس خلقها بميسم تكويني وبكيفية خاصة، وهذا الميسم التكويني والكيفية الخاصة هي المسماة بالفطرة التي تدفع الإنسان بواسطة عقله أو بدونه لتتميم نواقصه وسدّ حوائجه.

وباعتبار أن الخالق حكيم فلا بدّ أن يُوجِد ما تعلقت به النفس وإلا لكان على خلاف حكمة الخالق.

٤

دور الوحي في تحصيل المعرفة

الوحي ـ كمصدرٍ للمعرفة ـ هو الدين الذي أنزله الله جلّ وعلا على نبيه الأعظم محمد ﷺ، وهذا الدين رسالة شاملة كاملة خاتمة للشرائع والأديان، وخالدة إلى يوم القيامة، فيها هداية الناس وإرشادهم إلى معنى وجودهم، وفيها توضيح غاية الوجود الإنساني ومكانة هذا الوجود بين بقية الكائنات، وفيها تبيان للمقاصد والغايات، وتفصيلٌ للمبادئ والقيم والأحكام، وبيان مصير الإنسان بعد هذه الحياة الدنيوية مع بيان عالم البرزخ ومواقف يوم القيامة والجنة والنار.

وليس الإنسان من وسيلة لمعرفة يقينية بغاية الوجود الإنساني ومكانته ومصيره إلا بالوحي.

٥

دور العقل
في تحصيل المعرفة في عالم الشهادة

الشهادة مأخوذة من الشهود بمعنى الحضور، فعالم الشهادة هو ما يمكن إدراكه للإنسان بحواسه الظاهرة والباطنة، وعالم الغيب هو ما لا يمكن للإنسان إدراكه بحواسه الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

والحواس الظاهرة خمسة: البصر والسمع والشمّ والذوق واللمس، وقد تقدم الكلام فيها.

والحواس الباطنة خمسة أيضاً: العقل، والذاكرة المسماة بالحافظة، والخيال المسمى بالمتخلية، والوهم المسمى بالمتوهمة، والإدراك النفسي الباطني.

فالعقل للإدراك والحكمة والرشد، والذاكرة لحفظ المعلوم إلى

(١) سورة التغابن، الآية: ١٨.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢٢.

وقت حاجة استحضاره، والخيال لإدراك صور الأشياء، والوهم لإدراك المعاني الجزئية.

والإدراك الباطني لمعرفة ما يوجد وما يطرأ على النفس من شعور ودوافع وخواطر ووساوس.

فالشعور هو الحالة الفعلية التي تغمر النفس.

والدوافع هي ما ذُكر في النفس من تطلعات وميول، فالتطلعات من حب الكمال والجمال والخير قد رُكّزت فيها بحسب تعلّقها بعالمها، والميول والمسماة بالغرائز قد رُكّزت فيها بحسب تعلّقها بالبدن.

والأخيران معروفان المعنى والمصدر.

وعليه فالعقل له القدرة على سبر آيات عالم الشهادة داخل النفس وخارجها، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[١].

فدوره استكشاف ما في عالم الشهادة من سنن وطبائع وإمكانات، واستنباط ما أودعه الله من معايير ومفاهيم، وتحصيل ما في عالم الشهادة من علاقات طبيعية وإنسانية واجتماعية، وتقرير الوظائف تجاه ما يدركه.

وبعبارة أخرى فدوره تحصيل العلم من ناحية إخراج الموجود من العدم، ومن ناحية ماهية هذا الموجود، ومن ناحية حاجاته

(١) سورة فُصّلت، الآية: ٥٣.

واستعداده وإمكاناته، ومن ناحية غاياته وكماله، ومن ناحية علاقاته مع بقية الموجودات، ومن ناحية الوظيفة التي يجب عملها تجاهه، وهكذا بالنسبة لبقية الموجودات.

٦

دور العقل في إدراك عالم الغيب

عالم الغيب ـ على ما تقدم ـ هو ما لا يمكن إدراكه للإنسان بواسطة حواسه الظاهرة والباطنة، وهو على قسمين بالنسبة للإنسان، قسمٌ له دخلٌ في سَيْري الإنسان الوجودي والسلوكي، وقسم ليس له الدخل في السيرين المذكورين.

فالقسم الذي له الدخل في سيريه الوجودي والسلوكي، وكان مما ينفعه في أداء دوره، وكان له نفع في الوصول إلى غايته فقد أنزله الله تعالى عبر أنبيائه ورسله بكتبه وشرائعه.

وما له الدخل في السيرين المذكورين وهو ما لا ينفعه في أداء دوره ولا ينفعه في الوصول إلى غايته فقد مُنع منه، كعلمه بأجله، فلو علم أجله فحينئذ إن كان الأجل قصيراً لم يتهنأ بعيش، وإن كان طويلاً لأنهمك في اللذات وأجلّ التوبة، وكلا الأمرين غير مرضيّ في الحكمة الإلهية الربوبية، فاقتضت الحكمة حجب العلم بأجله ليبقى مترقّباً له مع وجود أمل عنده، إذ لولا الأمل لبطل دافع الحياة.

وما له الدخل في السيرين المذكورين، وقد ينفعه في أداء دوره أو في الوصول إلى غايته إلّا أن سيئاته أكثرُ من حسناته فقد مُنع منه،

كمعرفة الضمائر والنيات عند الآخرين، لما يترتب على هذه المعرفة من فساد العلاقات المبنّية على الثقة.

والقسم الذي ليس له الدخل في السيرين المذكورين فقد مُنع منه، لأنه ليس من شأنه الإطلاع عليه، أو لا تتحمل طاقته العلم به، ومن الأول علم ما فوق السماء وما تحت الأرض، ومن الثاني معرفة ذات الله جل وعلا.

إلا أن الغيب الممنوع منه ممنوع عليه معرفةُ إحاطة وسبر وفهم للماهية ودورها، لا معرفة إدراك وتيقّن وجود هذه الماهية.

وعليه فعقيدة المسلم في الغيب أنه شيء يعلمه الله ولا يعلمه الإنسان، ولكنه لا يناقض العقل ولا يلغيه، فليس الغيب ضدّ العقل لو عَرِفه وانكشف الغطاء عنه، ولكنه فوق العقل، لأن تحمل الإنسان محدود والغيب مطلقٌ غير محدود.

والفارق عظيم بين ما هو ضدّ العقل وبين ما هو فوقه، فما هو ضد العقل فهو يلغي العقل ويعطّله بمنعه عن التفكير، وما هو فوق العقل فهو يُطلق للعقل مداه إلى أن يصل إلى غاية ذرعه في فهم الغيب فَهْمَ إدراك.

ثم يقف العقلُ حيث ينبغي له الوقوف، يقف فيقبلُه بالإيمان به، فحق العقل أن يُدرك ما وسعه من جانبه المحدود، ولكن لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها المطلق إلا بالإيمان، وحيث يبلغ الإنسان هذا المبلغ فقد انتهى إليه العقل والإيمان على وفاق، ولا يصل إليه من أيّ مدرسة فلسفية أو نظرة دينية غير إسلامية، مع الالتفات إلى أن من يرفض الإيمان بغير المحدود ـ الذي هو الغيب ـ فهو يرفض الإيمان

بما يستحق الإيمان.

هذا والإنسان بنفسه يُمثّل خير تمثيل لعالمي الشهادة والغيب، وكيفية التعاطي معهما، فالإنسان يعلو على شهواته وغرائز نفسه بعقله، ويسمو على عقله بنفسه المرتبطة تعلقاً بالله جلّ وعلا، فيتصل من جانب غرائزه وشهواته بقوى بدنه، وهي دوافع الحياة الجسدية، وهذا الجانب من النفس غير خفي على الإنسان.

ويتصل من جانب فطرته بالله جلّ وعلا، وهذا الجانب خفيّ على الإنسان، فلذا لا يناسب العقل الإنساني المحدود أن يحيط بالروح إلا بالإشارة والتقريب، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

٧

أهمية العقل والوحي

شاع في العصور المتأخرة رأيٌ بحصر المعرفة بالحواس فقط، وهذا ما يرفضه التكوين المعاشي للإنسان، لأن المنقول عبر الحواس لا تستقر حقائقه ولا يُفهم بواقعه إلا من خلال العقل.

كما شاع رأيٌ بحصر المعرفة بالعقل فقط، ويردّه أنه يجعل المعرفة مقصورة على الأمور الكلية، مع أن التفاعل والانفعال الحادثين من معايشة الإنسان للجزئيات الحياتية والنفسية والكونية أمرٌ بادٍ للعيان.

فلا يجوز الاقتصار في تكوين العقلية الفكرية على مصدر واحدٍ من مصادر المعرفة، بل لا بدّ من استمداد المعرفة من الجميع، كلٌّ في مجاله وبقدر وسعه.

إلا أن غالبية المعرفة آتية من العقل والوحي، والذي يحتل المرتبة الأولى في ميزان استقرار الحقائق في ذاتها وقبولها عند الإنسان هو العقل، ولذا كان معرفة نزول الوحي والدين من قبل الله عز وجل مبنية على العقل، بل كان عماد أصول الدين من التوحيد

والنبوة مرتكزاً على العقل، وكان معرفة الصادق من مدعي النبوة متوقفة على العقل، وهكذا.

ففي النبوي: (قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له)(١).

وفي العلوي: (العقول أئمة الأفكار، والأفكار أئمة القلوب، والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الأعضاء)(٢).

---

(١) البحار ج١ ص٩٤ حديث: ٩٤.

(٢) البحار ج: ١ ص٩٦ حديث٤٠.

الفصل الثالث

غاية التفكير

١ الإنسان هو المحور الغائي للكون

٢ التعاريف المتداولة للإنسان.

٣ الإنسان بنظرة إسلامية.

٤ حقيقة الإنسان ليست عقلية، بل نفسية لها القدرة العقلية.

٥ معنى الاستخلاف ووظائفه.

٦ انجاز الدور الإستخلافي.

١

الإنسان هو المحور الغائي للكون

مرّ خلق آدم عليه السلام بمراحل.

الأولى: المرحلة الترابية، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[١].

الثانية: المرحلة الطينية، وهي جبل التراب بشيء من الماء فيصير طيناً لازباً، أي: متماسكاً يلتصق بعضه ببعض، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾[٢].

الثالثة: مرور الطين بمراحل حتى صار كالصلصال، وهو ما إذا جفّ الطين ويبُس من دون مسّ النار له، وصار له صوت إذا نُقر باليد، فهو يشبه الفخار.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[٤]، والحمأ هو

(١) سورة آل عِمرَان، الآية: ٥٩.
(٢) سورة الصّافات، الآية: ١١.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٢.
(٤) سورة الحِجر، الآية: ٢٨.

الطين المتغير والذي يسوّد من مجاورة الماء له وخلطه به، والمسنون: المصوّر.

الرابعة: المرحلة البشرية، وذلك عندما توجهت إرادة الله لبعث الروح في هذه الكتلة الصلصالية فكان الإنسان.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾[(١)].

وأما بالنسبة لبني آدم، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[(٣)].

بعد خلق آدم عليه السلام ونفخ الروح فيه ـ وعبّر المولى عنها بأنها من روحه، بمعنى أن الله جلّ وعلا بثّ في الكتلة الصلصالية الروح من دون توسط أسباب، بل كان خلقها تابعاً لأمر الله جل وعلا مباشرة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن

---

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) سورة السّجدَة، الآيات: ٧ ـ ٩.

(٣) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢ ـ ١٤.

تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[(٢)] - أمر الله جل وعلا ملائكته بالسجود له، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾[(٣)]، وكلهم سجدوا كما قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾[(٤)]، وعاتبه ربُّه بقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[(٥)]، وأجابه كما قال تعالى: ﴿قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾[(٦)]، وقال تعالى: ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾[(٧)]، وقال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[(٨)].

وإبليس من الجن، والجن من النار، قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾[(٩)]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[(١٠)]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥﴾[(١١)].

---

(١) سورة آل عِمرَان، الآية: ٥٩.

(٢) سورة صٓ، الآية: ٧٥.

(٣) سورة البَقَرَة، الآية: ٣٤.

(٤) سورة الحِجر، الآيتان: ٣٠ ـ ٣١.

(٥) سورة صٓ، الآية: ٧٥.

(٦) سورة الإسرَاء، الآية: ٦١.

(٧) سورة الحِجر، الآية: ٣٣.

(٨) سورة الأعرَاف، الآية: ١٢.

(٩) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(١٠) سورة الحِجر، الآية: ٢٧.

(١١) سورة الرَّحمٰن، الآيتان: ١٤ ـ ١٥.

والآيات الآمرة بالسجود وإن خصت الأمّر بالملائكة إلا أنه يعمّ إبليس، وإلا لأجاب عندما عاتبه ربّه بعدم الأمر، مع أن الله جل وعلا قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[1].

ومن هنا ينشأ سؤال: إذا لم يكن إبليس من الملائكة، والآيات خصت الأمر السجودي بهم فكيف توجه الأمر إلى إبليس؟

والجواب: أن إبليس ـ وهو من الجن ـ كان يسكن السماء، والأمر السجودي كان للمشاهدين الحاضرين في السماء، وهو من جملتهم فعمّه الخطاب، لكن باعتبار أن غالبهم من الملائكة خُصّ الأمر بهم من باب التغليب.

ومعنى السجود الملائكي للإنسان هو: أنهم مسخّرون للعمل له حتى يصل إلى كماله، فالسجود له سجود تفضيل، فهو أفضل منهم فلذا سُخرّوا للعمل له، وليس سجودهم سجود تكريم، ولا سجود تعظيم، ولا سجوداً إليه بجعله قبلة لسجودهم، بل سجودهم التعظيمي لله جلّ وعلا، قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾[2]، وعليه فهم مسخّرون للعمل له، بل هو المخلوق الوحيد الذي سُخّر له الكون، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٦.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ١٣.

(٤) سورة لقمان، الآية: ٢٠.

ومن آيات التسخير يستفاد أن الإنسان هو المحور الغائي من خلق الكون، وهو سيّده، والمحور الغائي هو الغاية من الخلق التكويني، لا أنه المحور الطبيعي للكون ـ كما تُوهِّم ـ بحيث إن كل الأجرام تدور حول الأرض لحلول الإنسان فيها.

وكان المحور الغائي لأن الله جعله خليفةً له في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، ولأنه الخليفة فهو المخلوق الوحيد الذي أخبر الله ملائكته عنه قبل خلقه كما في الآية المتقدمة، ولذا اعترضت الملائكة حين إخبارها، كما قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[2].

ولأنه الخليفة فقد خلقه في أحسن تقويم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[4].

وفضّله على بقية مخلوقاته، قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[5]، والمعنى ـ والله العالم ـ وفضلناهم على من خلقنا، وما خلقناه كثير.

---

(١) سورة البَقَرَة، الآية: ٣٠.

(٢) سورة البَقَرَة، الآية: ٣٠.

(٣) سورة التّين، الآية: ٤.

(٤) سورة غَافِر، الآية: ٦٤.

(٥) سورة الإسرَاء، الآية: ٧٠.

٢

التعاريف المتداولة للإنسان

عُرّف الإنسان ـ وهو أول تعريف له في الفلسفة الإغريقية ـ بأنه حيوان ناطق.

وأشكل على الحيوانية في التعريف بإحساس الإنسان بالسمو والتفوق وهما مفقودان في الحيوان.

ورُدّ الإشكال بأنه حيوان، لأنه يشارك جنسه الحيواني في النزوع إلى إشباع حاجاته الجسدية وتحقيق مطالب غريزته، فيسعى إلى طلب المأكل والمشرب والمأوى والأنيس استمراراً لحياته، وحفاظاً على نوعه، ويصدر في سلوكه بعض المنازع الطبيعية كالحيوان، مثل العدوان والانتقام والكراهية والحب. وخُصّ بالناطق، لأن النطق إنما يكون عن فكرٍ سابق ومعنى قائم بالنفس.

ولإجمال التعريف في الناطقية عُدل عنه إلى تعريفه بأنه حيوان عاقل، أو حيوان مفكّر، أو ذو معرفة، أو يعمل بوعي، أو اجتماعي، أي: قادر على التفاهم مع بني جنسه، أو أخلاقي، أو حيوان حالم، أو ذو تاريخ، حتى وصل الأمر إلى تعريفه بأنه حيوان تلفزيوني، وهذه التعاريف كلها ترجع إلى تعريفه على أساس فلسفي فكري أو ثقافي.

وعُرّف الإنسان بأنه روح عُلوية سقطت إلى الأرض من السماء، وهذا التعريف ناظر إلى الخطيئة التي وقع فيها آدم ﷺ حين أكل من شجرة المعرفة بغواية الشيطان.

وأصحاب هذا التعريف يؤمنون بميراث الخطيئة التي وقع فيها آدم ﷺ فيرثها بنوه بعده إلى يوم القيامة، وهذا التعريف يرجع إلى أساس ديني اعتقادي.

وعُرّف الإنسان بأنه حيوان راقٍ، بحسب التطور بين أنواع الأحياء على مذهب النشوء والتطور والارتقاء، وهذا التعريف أرجعوه إلى أسس علمية وألبسوه ثوب العلم.

وحار الكثير في فهم حقيقة الإنسان وتعريفه، ولذا قال المعري:

والذي حارت البرية فيه حيوانٌ مستحدثٌ من جماد.

هذا وتعريفه بأنه حيوان راقٍ مبنيٌ على نظرية داروين، صاحب كتابي (أصل الأنواع أو الخلائق) و(سلالة الإنسان أو ظهور الإنسان).

وهي نظرية قائمة على أن كل الكائنات الحيّة محكومة بنظام النشوء والتطور والارتقاء، وهي ترجع إلى أصل مشترك انبثقت منه، وعندما برزت سلالة الإنسان المتحولة من سلالة القرود فقد برزت وهي منقسمة إلى ست عشرة مرتبة، أدناها الزنوج ثم الماوية إلى الأوروبيين البيض في المرتبة العليا.

وهذه النظرية تبنتها العقائد الإلحادية، لأنها تفسر نشوء الخلق بدون الخالق.

ولكن لم تفسّر هذه النظرية كيف بدأت الحياة على وجه الأرض

في الأصل المشترك، ولم تفسر الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان، ولم تفسر السبب في وقوف التطور والارتقاء على هذه المراتب الستة عشر، ولِمَ انقسم الإنسان عند بروزه إلى هذه المراتب.

وفي هذه الإشكالات هدمٌ لنظرية داروين وليس نقداً لبعض جوانبها.

وتعريف الإنسان بأنه روح علوية سقطت إلى الأرض من السماء فهو مبني على الفكر الكنسي المسيحي، وهو منقوض، لأنه إن أريد من الروح العلوية هي الملائكة ـ وليس هذا مقصودهم ولكن قد يتوهم ـ فالمَلَك له نفس غير مستقلة من ناحية الإرادة والاختيار، بل هو ذات لتلقي الأوامر وتنفيذها، قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

فتوصيف الملائكة بأنها ذوات أجنحة توصيف استعاري، فالجناح للطير ليوصله إلى غرضه، فاستُعير الجناح للمَلَك للإشارة بأن له غرضاً، وهو تلقّي الأمر والذهاب إلى تنفيذه، وإذا كان له غرضان أو أكثر فله أكثر من جناح، وعلى أساس هذا الوصف الاستعاري صُوّر المَلَكُ في المخيال الشعبي بجناحين.

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧.

(٣) سورة فاطر، الآية: ١.

ولأنه محجوب عنّا فهو مستور، كاستتار البنات، ولذا نسبوا إلى الله تعالى بأن له بناتاً عندما نسبوا له أولاداً وهم الملائكة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾[2]، وعلى هذا الاعتقاد ما زال المخيال الشعبي يصوّر المَلَك بدون لحية ولا شارب كالبنت.

وإن أريد من التعريف بأن الروح العلوية هو الإنسان ـ وهذا هو مقصودهم من التعريف ـ إلا أنه مكتوب عليه العيش في الجنة السماوية، وبعد المعصية أخرجه الله جل وعلا إلى الأرض.

وعلى هذا الاعتقاد تترتب لوازم فاسدة، منها: أنه على خلاف القضاء الإلهي لو كان الأمر الإلهي بسكون الإنسان في الجنة السماوية.

ومنها: أن الله لم يقدّر الكون لتناسل آدم عليه السلام، وبسبب معصيته فيكون آدم عليه السلام قد ورّط خالقه برعاية بنيه المتناسلين عن هذه المعصية خارج الجنة.

ومنها: أن جنة آدم عليه السلام في السماء، مع أنها في الأرض، غايته أنها قطعة من الأرض جعلها الله جل جلاله محكومة بنظام الجنة السماوية، المبني على نظام الاشتهاء الإنساني، قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ

(١) سورة النّجم، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الإسرَاء، الآية: ٤٠.

تَتَّقِينَ﴾(1)، وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾(2)، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾(3).

وآدم ﷺ في فترة الحضانة وعدم الاستقلالية كان بحاجة إلى من يرعاه يقدم له الغذاء والشراب وينظف بدنه إلى غير ذلك مما يحتاجه الوليد فكانت جنته الأرضية المبنية على اشتهائه هي حضانته.

وعندما وعى ونمت قدراته الجسدية والنفسية والفكرية واستقلّ بنفسه وأصبح قادراً على تلبية حاجاته طلب الخروج كما يخرج كل إنسان من حضانة العائلة الأبوية ليبني أسرة تكون جزءاً من المجتمع.

وإذا كان هذا هو الأمر الطبيعي لآدم ﷺ وبنيه في فترة الحضانة، فمعصية آدم ﷺ أنه طلب الخروج بعد الاستقلال من دون انتظار الإذن الإلهي بالخروج، كمعصية يونس ﷺ بعدما أُخبر بعذاب قومه بعد ثلاثة أيام فخرج قبل أن ينتظر الإذن الإلهي بالخروج.

ومنها: ميراث الخطيئة، ومعناه أن الإنسان محاسب بذنب أبيه، والعقل حاكم بأن هذا ظلم، والمولى لا يقدم عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(4).

وتعريف الإنسان بأنه حيوان ناطق إلى آخر الأوصاف فهو من نتائج تصورات العقل البشري من دون ربطه بغاية وجوده، بخلاف تعريف

---

(1) سورة النحل، الآية: 31.
(2) سورة فصلت، الآية: 31.
(3) سورة الأنبياء، الآية: 102.
(4) سورة الأنعام، الآية: 164.

الإسلام له ـ كما سيأتي ـ فقد ربطه بغاية وجوده وماهية دوره، وهذا فارقٌ بين الرؤية الوجودية التي قدمتها الفلسفة الاصطلاحية وبين الرؤية الوجودية التي قدمها الدين الإسلامي.

٣

الإنسان بنظرة إسلامية

الإنسان بنظر الإسلام هو خليفة الله في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١)، ولأنه الخليفة فقد كرّمه بالعقل وزوّده بالقدرة على العمل، وهذه القدرة محتفّة بإرادتين: إرادة الخالق وإرادة المخلوق. ولأنه صاحب عقل وقدرة وإرادة فهو الوحيد القادر على تحمل أمانة التكليف، وهي الأمانة التي تحمّلها الإنسان بحسب تكوينه النفسي وأبتها السموات والأرض والجبال، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾(٢).

فقبول الإنسان لأمانة التكليف سُنّة مغروسة في كيانه النفسي، وهذا ما ميّزه عن بقية الكائنات، إلا أنه ظلوم لأنه يتعدى الحدود وهو يعرفها، وجهول لأنه يتعدى الحدود وهو لا يعرفها، ولكن عنده أمانة العقل التي تهديه إلى علم هذه الحدود.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

ولتحمّله أمانة التكليف يكون مسؤولاً أمام خالقه عن أداء دوره الاستخلافي، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[1].

وبأمانة التكليف يرتفع مقاماً عالياً فوق مقام الملائكة، لأنه قادرٌ على الخير والشر بخلاف المَلَك الذي يصنع الخير فقط ولا يقدر على غيره ولا يعرف سواه.

وبهذه الأمانة يهبط الإنسان غروراً وسرفاً إلى زمرة الشياطين، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[2].

وفي الحالتين لا تتبدل حقيقته البشرية وإن اختلفت توجهاتها واختلف إعمال قدرته ومناحي تفكيره، قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[3].

وفي الحالتين أيضاً فهو قابل للتسافل بعد الصعود بسبب مطاوعة الهوى والغرور والسرف وطغيان القوة والهلع من البلاء والطمع مع الضعف والإغراء.

كما أنه قابل للنهوض بعد العثرة، وقابل للتوبة بعد الخطيئة، غير محاسب على ماضيه فضلاً عن عدم محاسبة ما جناه سواه.

فالإنسان قنطرة من الأرض إلى السماء، ومعراج من التراب إلى

(١) سورة يُونس، الآية: ١٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.
(٣) سورة النّجم، الآيتان: ٣٩ ـ ٤٠.

رب الأرباب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1]، فيرتفع الإنسان من التراب إلى السماء أوجاً فوق أوج في طريق عسير وطويل، وهو طريق النهوض بأمانة التكليف.

وإذا كان الإنسان مخلوق كخليفة لله جلّ وعلا، فالله جل جلاله صورة كاملة من (غاية الكمال في أشرف الصفات) مشيئة وعلم وعمل، وإبداع وإنشاء، وفتح وإيجاد، وكل واحدة منها مطلوبة من الإنسان قدر الإستطاعة على قاعدة الاستهداء بالصفات الإلهية. فكمال الإنسان ورفعته وشرفه بقدر ما تكون صفاته وأفعاله أقرب إلى الصفات والأفعال الإلهية.

وأدناه وأخسّه ما كان صفاته وأفعاله أبعد.

وبقاعدة الاستهداء بالصفات والأفعال الإلهية يستشعر الإنسان بكونيّته وبأبعاد تكوينه اللامحدود، وبنزوعه اللامحدود أيضاً، ويستشعر بالوجود وبالموجود، ويستشعر بمسؤوليته من ناحية دوره وأفعاله، ويستشعر التخضّع والتخشّع لله جلّ وعلا في كل أفعاله، وهذا كله لا يتم إلا بالعلم مع التوفيق الإلهي.

ولذا كانت أول الآيات النازلة على قلب النبي الأعظم ﷺ قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾[2].

وفي هذه الآيات تحديد لبداية السير الوجودي للإنسان وأنه من علق، وتحديد لنهاية السير السلوكي وأنه العلم.

---

(١) سورة الانشقاق، الآية: ٦.

(٢) سورة العلق، الآيات: ١ ـ ٥.

وتكرر فيها لفظ (الرب)، مع توصيفه بالخالقية في الأولى، وهذا إشارة إلى بداية سيره الوجودي، وتوصيفه بالأكرمية في الثانية وهذا إشارة إلى أن الله جعله قادراً على التعلم، ولا يوصله إلى غاية خلقه ونهاية سيره السلوكي إلا بالعلم مع التوفيق الإلهي.

ولذا كان العلمُ أفضل نعمة بعد نعمة الخلق، إلّا أنه العلم المحقق لخلافته في الأرض.

وإذا كان لا بدّ من تعريفه بحسب النظر الإسلامي فهو الكائن ذو النفس العاقلة، والمكلّفة والمسؤولة، والقابلة للتكامل والتساقط، فإن تكامل فهو قمة الخليقة، وإن تسافل فهو من زمرة الشياطين، وهذه النفس متعلقةً بالله تطلّعاً وتعبّداً وتخضّعاً، ولا ترتوي إلا بالقرب منه، ولا تصلح إلا بالاستهداء بصفاته وأفعاله.

وعليه فهي غير النفس الحيوانية، لأنها غير عاقلة ولا مكلّفة ولا مسؤولة عن أعمالها، وغير قابلة للتكامل والتساقط، وليس فيها الفطرة التوحيدية، فلا يوجد قاسم مشترك بين النفسين، فتعريف الإنسان بأنه حيوان ـ وهذا ما يقتضي الإشتراك في جنس الحيوانية وفي ذات النفسية ـ ليس في محله.

٤

حقيقة الإنسان ليست عقلية
بل نفسية لها القدرة العقلية

الإنسان ليس عقلاً محضاً، بل هو نفس وبدن، فالنفس هي التي تقود الإنسان قيادة سيطرةٍ وإحكام، وهي التي تشقى وتلتذّ، وهي التي تحب وتكره، وهي التي تقرر الفعل أو عدمه، وهي التي تتحمل جزاء العمل من الخطأ والصواب، وهي التي تنحرف وتستقيم.

فالنفس بحسب عملها في طريق الصلاح لها ثلاثة مراتب:

الأول: النفس السوية والمتزنة والمؤهلة لسلوك سلم الكمال وارتقاء درجاته، وهي التي تتعامل مع الدوافع الفطرية المتعلقة بالبدن والمسماة بالغرائز، وعليها ضبط هذه الغرائز، وهي التي تتعامل مع الدوافع اللاشعورية والمسماة بالانفعالات، كرد فعلٍ من خوف وغضب وعاطفة وحزن ونحو ذلك، وعليها أيضاً ضبط هذه الانفعالات، وهي التي تتعامل مع الدوافع الاجتماعية المكتسبة من العادات والتقاليد، فعليها أخذ الأحسن وترك الأسوأ.

الثانية: النفس الخيّرة، وهي أعلى من النفس المتزنة، وهي التي تتعامل مع الدوافع الفطرية والمسماة بالتطلعات الناشئة من تعلق النفس

بعالمها، ومن أهم التطلعات التعلق بقيم الكمال والجمال والخير، وينشأ من هذه التطلعات التعلق بالله جلّ وعلا اعتقاداً، والتعلق به عبادةً وتخشعاً، والتعلق به استعانة ولياذاً، وعلى النفس تفعيل هذه التطلعات وتنمية استعداداتها الكامنة في مكانها.

الثالثة: النفس المتسامية، وهي أعلى درجة من المتزنة والخيرة، وهي النفس التي لا ترضى بالوقوف على حدٍ من حدود الكمال، وهي التي تتفانى في بذل طاقتها نحو الكمال.

وأما العقل فله قيادة التنوير والهداية، فيقدّم الدليل والبرهان والمنطق والحكمة والنصح والإرشاد، بل لا تلتزم النفس بما يقدمه العقل إلا طائعة مختارة.

وعليه لا بدّ من التمييز بين ما هو عقلي وبين ما هو نفسي، لأن العلاقة قائمة بين النفس والبدن، وليس بين العقل والبدن.

نعم العقل من أعمال النفس وقواها، ولذا كان من جملة الحواس الباطنة للإنسان.

وعلى ما تقدم فالنفس حاضرة بالعيان عند ذاتها فلا تحتاج إلى برهان، بل هي تعلم ذاتها علماً حضورياً، فهي عالمة ومعلومة، وهي الشيء الوحيد الذي اتحد به العالم والمعلوم في عالم الإمكان، وعليه فالمقولة (أنا أفكر إذاً أنا موجود) التي قالها بعض فلاسفة الغرب وشاعت بين أهل الفكر والثقافة ليست في محلها من وجهين:

أولاً: ليس التفكير دليلاً على وجود الإنسان، بل الوجود الإنساني يتحقق بالنفس، والنفس حاضرة بذاتها عند ذاتها فلا تحتاج إلى دليل، إذ مع العيان لا برهان.

ثانياً: فرض التفكير أمراً مسلماً مما لا يصح، لأنه يحتاج إلى دليل على إثباته، نعم لمّا كان التفكير قضيةً حاضرةً عند النفس فكان هذا الحضور هو الدليل على وجود التفكير، كما كانت النفس حاضرة، عند ذاتها وهذا ما أغناها عن الدليل على إثباتها، وهذا ما يستدعي الانطلاق دائماً من النفس لا من التفكير.

فالانطلاق من التفكير لإثبات الوجود والموجود ثم النظر إلى أحوالهما هو الذي شكّل موضوع علم الفلسفة الاصطلاحية القائمة عند الإنسان منذ القديم فهو لو فرض صحته وإن قدّم رؤية فلسفية لفهم الوجود إلا أنه ليس في محلّه، لأنه يبقى رأياً محفوظاً في عالم الذهن لا تتفاعل معه النفس.

بخلاف الانطلاق من النفس، ولا يصح الانطلاق منها لإثبات وجودها لأنها موجودة بالعيان، بل الإنطلاق للنظر في إيجادها من قبل خالقها وللنظر في قواها ودورها وغايتها، وهذا لا يتحقّق إلا بالنظر إليها بالنسبة للعالم التكويني، وهذا يقدّم رؤية فلسفية لفهم الوجود، ويشكّل موضوع علم الفلسفة، إلّا أنه لا يبقى رأياً محفوظاً في الذهن، بل هذا الرأي يدفع النفس لأداء دورها بواسطة قواها ومستعينة بما سُخّر لها من العالم التكويني حتى تصل إلى غاية خَلْقها، وهذا فارق أساسي بين الرؤية الوجودية الآتية من الدين الإسلامي وبين الرؤية الوجودية الآتية من الفلسفة الاصطلاحية، وعليه فيجب تصحيح موضوع علم هذه الفلسفة.

٥

معنى الاستخلاف ووظائفه

استخلاف الله جل وعلا للإنسان في الأرض إعلاءٌ وإعزاز، إعلاءٌ لما فيه من استحواذ وبلوغ تحقيق ما هو خير وما هو حق. وإعزازٌ لما فيه من بلوغ غاية كريمة بسعي إليها الإنسان القويم، ويسمو بطلبها وببلوغ آفاقها.

ولا يحمل الاستخلاف شيئاً من المذلة والاستغلال، لأن الدور الاستخلافي علاقة من الله جلّ وعلا على تكريم الإنسان بإسناد الدور له، ولأنه علاقةٌ من الإنسان مبنية على المحبة والشوق والتطلع النفسي والاعتزاز والكرامة والقوة.

أما وظائف الاستخلاف فهي: أن يكون عابداً لربه، حكيماً في نفسه، خلوقاً مع بني نوعه، متعاوناً مع بني جنسه في إقامة المجتمع الإنساني، ومتعاوناً معهم في إعمار الدنيا.

إلّا أنّ البشرية ركّزت منذ القديم على وظيفتي إقامة المجتمع وإعمار الدنيا متجاهلة بقيّة الوظائف، وكُتبُ الحكمة والأخلاق في التراث الإسلامي ركّزت على فلسفة العبادة وعلى تعداد شِعَب الأخلاق المبنية على فضيلة الوسط بين رذيلتي الإفراط والتفريط بحيث

تنتج الحكمة من اعتدال القوى الشهوية والغضبية والعقلية، مع عدم الالتفات إلى السير الإنساني والإجتماعي والإعماري، مع أن هاتين الوظيفتين أمران مهمان، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾(١).

إلّا أن إقامةَ هاتين الوظيفتين من دون تحقيق عبودية الإنسان يجعلهما أداةً للظلم وللاستغلال.

بل كل وظائف الدور الاستخلافي لا يمكن إنجازها على الوجه الصحيح إلا على قاعدة تحقيق العبودية لله جلّ وعلا، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٢).

والعبودية تتقوم بأمرين في الشخصية الإنسانية المتّزنة والخيّرة، وهما: الإيمان بالله جلّ وعلا، والتقوى.

فالإيمان بالله الواحد الأحد هو ركيزة العقل، لإدراك أنه جزء من الكون المعتمد على إرادة الخالق الحكيم المدبر.

وهو ركيزة النفس للاعتماد على ربّها في كل شؤونها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾(٣).

والتقوى هي الإستشعار الدائم لحضور الله في القلب، وهي

(١) سورة هُود، الآية: ٦١.

(٢) سورة الذّاريات، الآية: ٥٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

حالة شعورية فعليّة تستولي على النفس، وكلما اكتمل هذا الشعور استنار باطنُ الإنسان فأمسك بقوى النفس، ومع الإمساك يستطيع أن يسخّرها ويسخّر ما هو تحت سلطانها لتحقيق غاية وجوده.

والتقوى هي الضابط الوحيد لمراقبة النفس لما تريد القدوم عليه من أعمال، والضابط الوحيد لمحاسبة النفس على ما فعلته من أعمال.

وتحقيق العبودية يستدعي العلم بها وبموجبها، وهو العلم الوحيد الذي مدحه الله جلّ وعلا في كتابه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(١)، ووجّه المدح ناشيء من تعليق حُكم الخشية على وصف العالمين بعبوديتهم.

وهذا المعنى العبودي يُصيغ نفس الإنسان من خضوع جسدي وخشوع قلبي ودوافع خالصة من الرياء وغاياتٍ هي سبل التقرّب إلى الله جلّ وعلا.

وبدون العبوديّة تكون العبادة مراسماً وطقوساً، وتكون الحكمة آراءً فرديةً لا قواعدَ تأسيسيّة، وتكون الأخلاق نفعيّةً ذاتيةً لا إنسانيةً مبنية على التضحية والإيثار، ويكون التعاون في إقامة المجتمع تبجحاً بالدور وتعالياً في الطبقية، ويكون التعاون في إعمار الدنيا استغلالاً واستعباداً. والعبودية تحتاج إلى أمرٍ ثالث زائد على الأمرين السابقين في الشخصية الإنسانية المتسامية، وهو الاستزادة من العمل الصالح.

والعمل الصالح مطلوب، وكذا الاستزادة منه، لأن الكمال مراتب ولا يُكتفى للنفس بالترقّي إلى مرتبةٍ دون الترقّي في سلّم الكمال.

---

(١) سورة فَاطِر، الآية: ٢٨.

٦

إنجاز الدور الاستخلافي

الكون من سعة وجوده وتناسق أجزائه ومن نظم حركة ما فيه ومن ثمرات عطائه فهو في خدمة الإنسان.

وكذا وظائف العقل الإدراكية والحكمية والرشدية، ولذا قال أمير المؤمنين ﷺ: (إن العقل لإقامة رسم العبودية لا لإدراك الربوبية) مستدرك نهج البلاغة، باب المختار من حكمه، الشيخ هادي كاشف الغطاء.

بل الوحي نزل لخدمة الإنسان، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[١]، والتبيان لكل شيء بما فيه هدايته في سيره السلوكي، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٣].

وعليه فلا يمكن إنجاز الدور الاستخلافي ما لم يتم التكامل بين

---

(١) سورة النّحل، الآية: ٨٩.

(٢) سورة الإسرَاء، الآية: ٩.

(٣) سورة البَقَرَة، الآية: ٢.

الوحي والعقل، وما لم يتم التفاعل بين الإنسان والكون، لأن الإنسان هو وسيلة الاستخلاف وأداته، وهو محل الاستخلاف وهدفه، فلا محالة يكون الدور الاستخلافي عرضةً لمجازفات وتجارب ومخاطر وعوارض وأهواء تُعتبر من أخطاء الإنسان، بسبب علمه وعمره المحدودين وبسبب معارفه النسبية وميوله المتنوعة وغرائزه المتدافعة، إضافة إلى عجزه عن إدراك الحقائق الغيبية عن النشأة والمصير.

لذلك تشتدّ الحاجة إلى الموجّه للطاقات والمرشد للمسالك من مصدر خارج عن نفس الإنسان، هذا الموجّه يمتلك الحق المطلق الذي لا يحدّه زمان ولا مكان، مع اشتداد حاجة الإنسان إلى الإيمان الذي يوجّهه ويحقّق له الأمن النفسي والإجتماعي، ويزكّي غرائزه، ولا يتجاهل الحاجة من دوافعه الأصليّة، وهو الذي يعطي الهدي المقصدي للإنسان، وهذا لا يتم إلا بعطاء الوحي، فلا بدّ من التفاعل بين عطاء الوحي وتطلعات العقل وأشواق النفس.

غير أن العقل له حرية التفكير ولا سلطة فوق سلطته فلم يجبره المولى تكويناً ولا تشريعاً بأن يتكامل مع عطاء الوحي إلا بعد اقتناعه، ولا يقتنع العقل بالتكامل ما لم يتم له حرية البحث وإطلاق عنان التفكير حتى يُسقط كلّ ما لا يوافق العطاء الديني، فلا مجال للاستبداد باسم العقل تجاهلاً لغايات الوحي ومقاصده وتوجيهاته وأحكامه، كما لا مجال للاستبداد باسم الدين تعطيلاً للعقل ولدوره وإهمالاً لنتائجه، فلا بدّ من التكامل بين العقل والوحي. وأيضاً للعقل قدرةٌ على سبر آيات عالم الشهادة من سنن وقوى، وفهم شؤون الحياة، ومعرفة أحوال الكائنات، مع قدرته على تسخير هذه المعارف

وتنظيمها ورعايتها وإصلاح شأنها وجعلها مستثمرة في خدمة الإنسان في وظيفتي إقامة المجتمع وإعمار الدنيا، وبه يتم التفاعل بين الله والإنسان والكون، فالله هو الخالق والإنسان هو المستخلَف والكون هو المسخَّر.

وبعد هذا وذاك يتم التكامل بين الإيمان والعمل، ويتم فهم عالمي الغيب والشهادة وأنّ الإنسان له طريق واحدة، أولها الدنيا وآخرها المعاد.

وعليه فما أُدّعي من صراع بين العقل والوحي، أو العقل والنقل، أو العقل والسمع، أو العقل والنص، أو الحكمة والشريعة ليس في محله.

لأنه يُراد من الوحي حقائقه ومفاهيمه وأحكامه وآدابه التي نزلت من الله جل وعلا في الكتاب وعلى لسان نبيه الأعظم ﷺ، ويراد من العقل العقل المتقرر بوظائفه الإدراكية والحكمية والرشدية، والمستَنِد على البرهان المثبّت للحقائق ثبوت اليقين.

والعقل والوحي بما قُرّر متكاملان مع الكون عبر الحواس والفطرة مع إعطاء العقل دوره كما للوحي دوره، فضلاً عن كون العقل سنداً لإثبات الوحي وأداة لفهمه.

لكن كلّما تعرضت المعرفة الإسلامية لتحدٍ فكري خارجي وقع إشكال في تقديم العقل على الوحي أو الوحي على العقل أو التوازن بينهما، ولذا عندما تُرجمت الفلسفة اليونانية أصبح هذا الإشكال من القضايا الكبرى، وأرخى بظلاله على الكثير من العلوم كعلم الكلام

وعلم التفسير وعلم أصول الفقه وعلم الفقه، وهي علوم مهمّة أساسية في المعرفة الإسلامية.

والإشكال كان من شقّين، الأول: هل إدراك الحق من مختصّات العقل أو مختصّات الوحي، الثاني: هل العقل هو الذي له قيادة الإنسان والوحي مساعد، أو العكس.

كُتب الكثير في رفع هذا الإشكال، ومن أبرز مَنْ كتب ابنُ رشد في كتابه (فصل المقال بين الحكمة والشريعة من الاتصال).

وهذا الإشكال عندما وقع بقدوم الفلسفة اليونانية كانت المعرفة الإسلامية قوية وسائدة فلم تستطع الفلسفة اليونانية من الإخلال بميزان ثنائية المعرفة من العقل والوحي، وإن تخبّط الكثير في التوازن بينهما، بعدما أمدّوا العقل بقضايا الفلسفة اليونانية، مع أن الفلسفة اليونانية نشأت من عقلية وثنية مشحونة بالأساطير، وقائمة على الثنائيات المتصارعة والمتحاربة، فقد ترك الإغريق اسطورة وثنية حول قضية المعرفة، خلاصتها: أن كبير الآلهة (زيوس) غضب على إله (برميثوس)، لأنه سرق النار المقدسة (سر المعرفة) وأعطاها للإنسان من وراء ظهر كبير الآلهة، وكبير الآلهة لا يريد اعطاءها للإنسان لئلا يرتفع مقامه فيهبط مقام كبير الآلهة ويهبط مقام بقية الآلهة، ومن ثُمّ أسلمه إلى أفظع انتقام وحشي رهيب.

ومع ذلك فقد أخذوا من افلاطون نظرته الوجودية، وأن الوجود طبقتان، طبقة العقل المطلق، وطبقة المادة أو (الهيولى)، والقدرة كلها من العقل المطلق، والعجز كله من (الهيولى)، وبين ذلك كائنات على درجات، تعلو بمقدار ما تأخذ من العقل، وتهبط بقدر ما تأخذ

من الهيولى، ومن هنا نشأت فكرة العقول العشرة، وعليه فالهيولى مقارِعةٌ دائماً للعقل المجرد، ولم يلتفوا إلى أنهما موجدان بمشيئة الهية على تفاعل وتكامل.

وسمّوا (أرسطو) بالمعلم الأول، والقرآن ينادي بأن المعلم الأول هو الله جل وعلا على يد أنبيائه، ثم أين مقام النبي الأعظم ﷺ، فهل هو المعلم الثالث بعد المعلم الثاني الفارابي؟. وفي القرون المتأخرة خصوصاً في عصرنا وقع التحدي للمعرفة الإسلامية من الحضارة الغربية المبنيّة على تقديس المادة وتعظيم الشهوات وتحطيم كل ما له الدخل في الفكر الديني الكنسي، ووقع الاختلال في ثنائية المعرفة من العقل والوحي، حتى ذهب بعضهم إلى توهين الوحي وتحقيره، وإلى إعلاء قيمة العقل وأنه الوحيد في المعرفة والقيادة، وهذا الغرور الذي أصاب بعض المسلمين قد سبقه إليه (نيتشه) الفيلسوف الذي أعلن موت الإله، وأعلن مولد الإنسان الأعلى (السوبر مان).

وخطورة التحدي الفكري في العصور المتأخرة تشكل خطراً من جهتين،

الأولى: وقع التحدي والمعرفة الإسلامية في ضياع وتشتّت بين تعصّب لرأي طائفة أو فرد وبين تكفير وتوهين، الثانية: وقع التحدي والروحية الإسلامية في النفوس منهزمة أمام القادم الغربي، لاهتراء الأنظمة السياسية، وعدم وجود تربية سليمة تحفظهم من انفلات الشهوات التي أتى بها القادم الغربي، وعدم نضوج فكري يبيّن حسنات ثنائية المعرفة من العقل والوحي.

ومن حاول الدفاع عن ثنائية المعرفة من العقل والوحي اكتفى بالتركيز على حشد الآيات والأدلة المؤيدة لهذين المصدرين من الكتاب والسنة، وفاته من غير وعي منه أن القضية لها أبعادها العقائدية، وأبعادها المعرفية، وأبعادها المنهجية، ولذا جاء الكثير من المحاولات مما تغلّب عليه البساطة والخفة والتعجيل والانبتات.

رَفْعُ التحدي اليوم يتم بالتحليل العميق للبعد العقائدي، وللبعد المعرفي، وللبعد المنهجي.

يبدأ من تصور عقائدي شامل يتعلّق بمنظومة كاملة تبدأ من الوجود الإلهي، وتمرّ بالوجود الكوني، وتنتهي بالوجود الإنساني، حتى تتضح العلاقة بين الله جل وعلا وبين الإنسان فيما أرشده به من وحي، وفيما زوّده من عقل، ليتحمل العقل هذا الوحي ويفهمه، ويستكشف أسرار الكون وسننه، ثم بالعلم الحاصل من هذين يقود العقلُ الإنسان نحو خالقه قيادة تنوير وهداية، وتسيطر النفس على قواها وتسخرها وتسخر ما تحت يدها في الدور الاستخلافي لتحقيق العبودية لله جل وعلا وإن كان الإنسان سيداً على بقية الكائنات.

الفصل الرابع

موانع المعرفة

١ الموانع النفسية

٢ الموانع الخارجية

٣ إزالة الموانع الخارجية

٤ معالجة الموانع النفسية

١

الموانع النفسية

كما لا يُعقل أن يَسلب اللهُ الإنسانَ القدرةَ على التفكير بعدما أعطاه العقل فكذلك يمتنع على العبد أن يعطّل عقله مرضاةً لمخلوقٍ مثله أو خوفاً منه أو اتّباعاً لشهوة نفسه وغريزتها.

وموانع المعرفة على قسمين: نفسية وغير نفسية، أي: خارج عالم النفس.

والمانع النفسي كثيرٌ وأهمها ثلاثة:

الأول: اتّباع الهوى، وهو اتّباع الشهوات والغرائز من دون ضابطه وهذا يعني أن المانع من الدوافع الفطرية الغريزية، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

الثاني: التكبّر والتجبّر، وهذا يعني أن المانع من الدوافع الفطرية النفسية، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[2].

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٢) سورة غافر، الآية: ٣٥.

الثالث: الإصرار على الذنب، وهذا يعني أن المانع من قبل الإرادة وما يتبعها من العمل، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١).

وفي الآيات المتقدمة ألفاظ (الختم والطبع والرين)، وهي أقفال على القلب، وقد ورد في القرآن الكريم مادة (القلب) بكل ما أُضيف إليها مثل (قلبك، قلبه، قلوبنا، قلوبكم، قلوبهم) بحدود (١٣٠) مرة، ولم يُستعمل لفظ (القلب) في جميعها في (القلب الصنوبري الموجود وسط الصدر)، بل أريد من الجميع النفس.

وصحّ الاستعمال المجازي لعلاقة بين النفس والبدن، وهي علاقة الحال والمحل، فالقلب الصنوبري هو نافذة النفس على البدن.

وعليه فهذه الأقفال القلبية هي أقفال على النفس، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(٢).

ومع هذه الأقفال فيكون عمى البصيرة، قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾(٣).

ومع عمى البصيرة فهو لا يفقه ولا يسمع ولا يبصر، بمعنى عدم الوصول إلى معرفةٍ من شأن النفس أن تصل إليها.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾(٤).

---

(١) سورة المطفّفين، الآية: ١٤.
(٢) سورة محمّد، الآية: ٢٤.
(٣) سورة يُونس، الآية: ٤٣.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٢٥.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾(2).

وقال تعالى: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(3).

وقال تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾(4).

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(5).

ولازم الختم على القلب أمران:

الأول: عدم نفع الموعظة من الوعد أو الوعيد، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾(6).

الثاني: تزيين العمل السيء، قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾(7).

---

(1) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(2) سورة التوبة، الآية: ٨٧.
(3) سورة التوبة، الآية: ٩٣.
(4) سورة الأعراف، الآية: ١٠٠.
(5) سورة الحج، الآية: ٤٦.
(6) سورة البقرة، الآيتان: ٦ ـ ٧.
(7) سورة فاطر، الآية: ٨.

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾[1].

ولعدم نفع الموعظة ولتزيين العمل السيء طلب الله جل وعلا من نبيه الأعظم ﷺ عدم جهده لهدايتهم، قال تعالى: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[5].

ولرفع إشكال عدم هدايتهم فلا بدّ من التفريق بين الهداية التشريعية والهداية الكمالية، فالهداية على ثلاثة أقسام:

• الهداية التكوينية: وهي أخذ الموجود إلى كماله التكويني عبر السنن الكونية، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[7]، ومفاد الآيتين أمران: الأول: الخلقة لكل موجود بحسب ما يحتاج إليه

الثاني: هداية كل موجود باستعمال خلقته للوصول إلى غايته التكوينية.

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣ ـ ١٠٤.
(٢) سورة النّحل، الآية: ٣٧.
(٣) سورة البَقَرَة، الآية: ٢٧٢.
(٤) سورة يُونس، الآية: ٤٣.
(٥) سورة القَصَص، الآية: ٥٦.
(٦) سورة طه، الآية: ٥٠.
(٧) سورة الأعلى، الآيتان: ٢ ـ ٣.

• الهداية التشريعية: وهي إراءة الطريق إلى الكمال الدنيوي والسعادة الأخروية، وهي مختصة بالإنسان بخلاف السابقة فإنها تعم كل موجود. وللهداية التشريعية طريقان:

الأول: الفطرة، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾[1].

الثاني: الوحي، وهو المتمثل بالقرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[2]، والمتمثل بالنبي الأعظم ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

وهذه الهداية التشريعية مبنية على اختيار العبد، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[4].

• الهداية الكمالية: وهي خاصة بالمؤمن التقي، وهي تسيير نفسي في طريق الكمال الدنيوي وطريق السعادة الأخروية، وهذه الهداية جزائية بسبب الأعمال الصالحة.

وهي في قبال الإضلال، وهو خاص بغير المتقي، وهو تسيير نفسي للابتعاد عن طريقي الكمال والسعادة جزاءً لتنكّبه عن العبودية، وهو أمرٌ جزائي بسبب الأعمال الطالحة.

ولأن الهداية الكمالية جزائية فهي بيد الله جل وعلا، قال

---

(١) سورة الشمس، الآيتان: ٧ ـ ٨.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٣) سورة الشورىٰ، الآية: ٥٢.

(٤) سورة فُصّلت، الآية: ١٧.

تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[2].

وكذلك الإضلال فهو بيد الله جل وعلا، لأنه جزائي، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[4].

وذكر الإضلال والهداية الكمالية في آياتٍ: منها: قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[5]، وقال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[6].

وبالتفريق بين الهداية التشريعية والهداية الكمالية ينحل الإشكال بطلب المولى جلّ وعلا عدم جُهد النبي الأعظم ﷺ في هدايتهم الكمالية، لأنه مطبوعٌ على قلوبهم، وإن أمر بهدايتهم التشريعية، بمعنى إراءة الطريق لإقامة الحجة عليهم.

وينحل إشكال آخر في قول المصلي في سورة الفاتحة ﴿ٱهْدِنَا

---

(١) سورة آل عِمرَان، الآية: ٧٣.

(٢) سورة الأنعَام، الآيتان: ٨٧ ـ ٨٨.

(٣) سورة النِّسَاء، الآيتان: ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٤) سورة الصَّف، الآية: ٥.

(٥) سورة الكهف، الآية: ١٧.

(٦) سورة الأعرَاف، الآية: ١٧٨.

﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[1]، والحل أنه يطلب الهداية الكمالية لا التشريعية بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٨٧ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[2].

هذا وقد أبان الله جل وعلا في قرآنه أن موانع الهداية الكمالية هي موجبات الضلال، وهي ثلاثة:

الأول: الكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[4].

الثاني: الفسق، وهو مطلق الخروج عن زيّ العبودية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[6].

الثالث: الظلم، وهو أعم من ظلم النفس وظلم الآخرين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[8].

وهذه الثلاثة كانت موانع الهداية وكانت موجبات الإضلال لأنها

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٦.
(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ٨٧ ـ ٨٨.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٧.
(٤) سورة غافر، الآية: ٧٤.
(٥) سورة المنافقون، الآية: ٦.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٦.
(٧) سورة المائدة، الآية: ٥١.
(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٦.

تزعزع ركائز الشخصية الإنسانية المتزنة، والشخصية الخيرة، والشخصية المتسامية، وركائزها كما تقدم ثلاثة وهي: الإيمان ويزعزعه الكفر، والتقوى ويزعزعها الفسق، والعمل الصالح والاستزادة منه ويزعزعهما الظلم.

بل كل ما هو من ركائز الشخصية الإنسانية أو يقويها فهو من موجبات الهداية الكمالية، والموجبات ثلاثة:

الأول: الإيمان، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾[1].

الثاني: المجاهدة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[2].

الثالث: الإنابة، بمعنى الرجوع إلى الله بالتوبة بالنسبة للعاصي، وبمعنى الاعتصام به جل وعلا بالنسبة للمطيع.

قال تعالى: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾[5].

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥٤.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٧.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٧٥.

٢

الموانع الخارجية

موانع المعرفة الخارجة عن عالم النفس ثلاثة:

الأول: عبادة السلف، وهي أقواها، ولذا قيل: عبادة السلف كالجبليّ للخلف قلما عنها يتخلّف.

وهي أول الموانع التي واجهت الدعوة النبوية المحمدية، فلم يغضبوا منه لأن سفّه أحلامهم واستخفّ بعقولهم، بل كانوا غاضبين لأنه يسفّه أحلام آبائهم ويستخف بعقول أسلافهم، وهم أصول نسبهم التي يفخرون بها.

فالعقيدة الدينية تملك الإنسان في جميع أوقاته وعلاقاته، وإذا ترعرع عليها وشبّ تصير جزءاً من تفكيره ومناحيه، وجزءاً من النفس وتطلعاتها.

وعليه فإذا كانت العقيدة الدينية متلقاةً من الآباء والأجداد الذين هم أصله ومصدر فخره، وهو لا يرضى بإهانتهم بل يرى وجوب توقيرهم، فتكون لعبادة السلف من المهابة النفسية مع المحبة والرعاية لجانب أصوله النسبية ما يمنع على الإنسان أن يفكرّ في غيرها.

والآيات الواردة في ذمّ تقليد السلف في العقيدة الدينية كثيرة منها: قول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[1].

وقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[2].

والقرآن عندما نهى عن الإذعان لهذا المانع إنما أعطى العقل الدليلَ والحجةَ في المقاومة، ولم يكتفِ بفرض واجب المقاومة عليه، لأن التقليد أمرٌ محمود، وهو رجوع الجاهل إلى العالم في مجال العلوم والصناعات والفنون، ولكنه أمرٌ مذموم في رجوع الجاهل إلى مثله في مجال العقائد.

الثاني: الإقتداء الأعمى بأصحاب السلطة الدينية من الكهنة والأحبار، فهؤلاء قد فسدوا بالاستكبار، وبالإقبال على الدنيا، وبتصيّد الناس بالجاه والخيلاء، وبأكل أموالهم بالباطل، وبالصدّ عن سبيل الله، ومع فسادهم لا بدّ أن تسقط سلطتهم على الضمائر وعلى العقول، لأنها سلطة غواية واعوجاج.

ولذا أسقط الإسلام سلطة الكهنة والأحبار، ونفى عنهم القدرة على التحريم والتحليل، وعلى الإدانة والغفران، بل نبّه إلى سيئاتهم وعاقبةِ الذين يستسلمون لخديعتهم، فقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة البَقَرَة، الآية: ١٧٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٠٤.

(٣) سورة التَوبَة، الآية: ٣١.

ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

الثالث: الحكم المستبد، وهو أخفها، لأنه يتسلط على النفس من خارجها، ولا يستهويها من باطنها، كما يستهويها حُبّ السلف، أو يستهويها الاسترسال مع القدوة الخادعة من قبل الكهنة والأحبار.

فالإنسان إمّا أن يرفضه ما داما في مكان واحد، أو يلوذ منه بمكان أمين، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾[2].

بل غالباً ما يكون خطر المستبد حافزاً للنفس على المقاومة، ومحرّضاً للعقل على الرفض والإنكار.

ولكن يُخشى أن يؤدّي الرفض العقلي إلى تشبّث العناد، لأن التشبّث خطرٌ على التفكير كخطر الاستهواء للقدرة الخائنة، وكخطر التسليم للسلف في عباداتهم المضلّة.

وعلى كلٍ فالحكم المستبدّ قهرٌ للنفس بغير إرادتها، فلذا تكون الإرادةُ طليقةً للمقاومة أو للحيلة أو للخضوع، بخلاف المانعَيْن السابقَيْن، فيوجبان الانقياد للضلال، إمّا إيثاراً له كعبادة السلف، أو محبّةً للمضلّين لأنهم قدوة، كالتّقليد الأعمى للأحبار والرهبان.

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٩٧.

٣

إزالة الموانع الخارجية

حق العقل على الإنسان أن يُزيل هذه الموانع ولو بالمشقة، لأنه لا بدّ من حقٍ تهون من أجله المشقّة، لأنها أهون من سلب الإنسان فضيلته العليا، وهي الرجوع إلى العقل، والإنسان لا يؤثر الحطة عن هذه الفضيلة.

وإذا كان الإنسان قادراً على الاهتداء بعقله، فالعقل يهديه إلى الخشية من الضرر على الأجسام، أفلا يهديه إلى الخشية من الضرر على العقول والضمائر، وإلى الخشية من النزول عن الحياة العقلية إلى حياةٍ لا شرف فيها ولا مروّة.

والقرآن كما أمَرَ العقلَ بالاستقلال ـ استقلال النظر ـ أمَرَه أيضاً في توقير الآباء، ولكن البِرَّ غيرُ الضلال على غير بصيرة. وأمَرَه بالرجوع إلى أهل الذكر ﴿فَسْئَلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١]، وهم أهل الاستقامة في سيرتهم، وأهل الرشد في هدايتهم، لا أهل الغواية والاعوجاج.

---

(١) سورة النّحل، الآية: ٤٣.

وأمَرَ بتمحيص الطاعة لأولي الأمر ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1]، ولكن لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

نعم لا خير في فتنةٍ يضرمها العصيان على غير بصيرة، فمن لم تكن له قدرة على المخالفة، ولم يكن لعصيانه مآل إلى الفتنة الطامة فله أن يهاجر، ففي الهجرة متسعٌ له.

فالقرآن الآمر بإزالة هذه الموانع لم يكلّف الإنسانَ الشطط في إزالتها، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2].

وكما لا يؤمره بغير ما يطيق فلا يحاسبه إلا على ما يستطيع، ومع ذلك تبقى تبعةٌ للأمة كلها، ولا ينفرد كل فردٍ بمصيره، إذ لا بدّ من الوحدة في حساب الأمم، لأنه لا خير للفرد في عيشة يقف خيره وشره بُعدَ بابه ولا يتشارك مع شركائه في مجتمعه وأمته.

نعم للأمة وزر باعتبار مجموعها، إلا أنها لا تُحاسب الأمم إلا على سُنّة الأمم في أطوار الاجتماع.

(١) سورة النِّسَاء، الآية: ٥٩.

(٢) سورة البَقَرَة، الآية: ٢٨٦.

٤

معالجة الموانع النفسية

بعدما تقدّم أنّ العقل له قيادة التنوير، وأن النفس لها قيادة السيطرة والإحكام، إلاّ أنّ لكلٍ منها تأثيراً على الآخر.

فعند ثبوت الحقيقة المدركة عقلياً بالبرهان القاطع تتعاطى النفس مع هذه الحقيقة عبر قواها.

وكذا النفس فعند غلبة شعورٍ عليها فعلياً يبرمج العقل معلوماته في تحقيق أمنية النفس من هذا الشعور، ولذا تكون دورة التفكير العقلي عند حب الانتقام غير دورة التفكير عند حب التسامح والغفران، وهذا ما يدل على تأثير كلٍ منهما على الآخر إلا أنه ليس في كل المجالات.

فالعقل المدرك ـ الذي يدرك الحقائق من دون الاستعانة بقوى النفس ـ ينفرد بالعلم مهما كان سلوك النفس وانفعالاتها وعاداتها، ويكون العقل وما ينتجه من العلم حجة للنفس وعليها. وأما العقل الحكمي الذي يصل إلى استنباط أسرار الحقائق، وكذا العقل الرشيد الذي يقرر الوظائف تجاه جميع الموجودات، وكذا العقل الباعثي والرادعي الذي ينهض بالإرادة من الميل إلى العزم الأكيد المستتبع

لتحريك قوى الإنسان، فالنفس بسلوكها وانفعالاتها وعاداتها تؤثّر على العقل في هذه المجالات، ومن هذا التأثير تنشأ الموانع النفسية للمعرفة. ولتفاديها لا بدّ من إعمال العقلية الفكرية ـ التي تَقَدّم الكلام عن مصادرها ـ على قاعدة العبودية لله جلّ وعلا لتحقيق غاية خلق الإنسان بإنجاز الدور الاستخلافي.

وعليه فمعلومات هذه العقلية موثوقة المصدر من العقل والوحي، وموثوقة الدليل إذا الدليل هو البرهان القاطع، وغايتها التي هي إنجاز الدور الاستخلافي مطابقة للتكوين الإنساني والكوني، وبهذا تنجو النفس من حبائلها وإغوائها وضعفها ومن التأثير الخارجي عليها، وحينئذ فلا تؤثر على العقل إلا بما تمليه الفطرة والحاجات الضرورية الفردية والاجتماعية.

الخلاصة

بعدما كانت معاجز الأديان السابقة قاهرةً للعقل ومخالفةً للسنن الكونية فأتى الإسلام بمعجزة تخاطب العقل وتقنعه وتعتمد عليه، وتوسّع دائرة التفكير من الدور الإدراكي والحكمي إلى أعلى مراتب الرشد.

وأتى الإسلام بمعجزة موافقة للسنن، وتدعو إلى فهم السنن وإدراكها واستخدامها في دوره وغاية خلقه.

وشكّل الإسلام العقلية الفكرية المتقوّمة بالعقل والوحي لتفهم دوره الاستخلافي وتعمل على إنجاز هذا الدور، مع تنصيص الإسلام على موانع المعرفة، سواء كانت خارجية أم نفسية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

حُرر يوم الجمعة الواقع فيه

١١ جمادى الأولى ١٤٣٢هـ

١٥ نيسان ٢٠١١م

بيروت ـ محمد حسن ترحيني

الفهرس

الفصل الأول

الخطاب القرآني للعقل

الفصل الثاني

تكوين العقلية الفكرية

الفصل الثالث

غاية التفكير

الفصل الرابع

موانع المعرفة